في وزارة المعارف

رشد وغى

زعموا أن صلاح الجسم رهين بصلاح الرأس الذي يدبره ، فإذا فسد الرأس فسد الجسم ، واذا اضطرب الرأس اضطربت أمور الجسم ايضا . زعموا ذلك وقالوه واكثروا من قوله حتى أصبح حكمة عامة وحديثا معاداً . ثم زعموا أن صلاح المدارس رهين بصلاح وزارة المعارف التى تديرها وتشرف عليها . فاذا فسدت وزارة المعارف لم يصبح فساد المدارس أمراً نكراً ، واذا اضطربت وزارة المعارف لم يبق معنى للعجب حين يضطرب التعليم . زعموا ذلك وقالوه واكثروا من قوله حتى أصبح حكمة عامة وحديثا معاداً ، وأصبح من الحق علينا أن نقبله دون أن نناقشه أو نجادل فيه .

صلاح المدارس والتعليم اذن رهين بصلاح وزارة المعارف . وما صلاح وزارة المعارف؟ وأي معنى يدل عليه هذا اللفظ ؟ الحق أنه يدل على معاني كثيرة ، وأن هذه المعاني قد اخطأت لسوء الحظ وزارة المعارف ، فهذه الوزارة في حاجة شديدة إلى الاصلاح والى ضروب مختلفة من الاصلاح لابد منها إذا أردنا أن تصلح المدارس ويصلح التعليم ، ويظهر أننا نريد ذلك ، ويظهر أن وزارة المعارف تشعر بأننا نريد ذلك ، ولكنها لا تشعر بالصلة بين صلاح الوزارة وصلاح المدارس ، وهذا أول نوع من أنواع الفساد التي نشهدها في هذه الوزارة المسكينة

انما يقدر على الاصلاح من يفهمه ويشعر الحاجة اليه ، فاذا كانت وزارة المعارف لا تفهم هذا الاصلاح ولا تشعر بالحاجة اليه فهى عاجزة عنه ، غير منتهية اليه مهما تبذل من جهد ومهما تتكلف من مشقة . ونريد الآن أن نثبت بعمل وزارة المعارف في هذه الأيام الاخيرة أنها لا تفهم الاصلاح ولا تقدر حاجتنا اليه ولا تسلك السبيل التي من شأنها أن تصل بنا إلى الاصلاح .

نريد أن نثبت هذا بعمل وزارة المعارف نفسها وهذه الأيام الأخيرة . فقد قرأت منذ أيام في الصحف تعينات وتنقلات كما يقولون حدثت في وزارة المعارف ، وهي لم تحدث عبث ، وإنما هناك رأى من الآراء أو نظرية من النظريات صدر عنها أولو الأمر في وزارة المعارف حين أرادوا أن يعينوا وحين أرادوا أن ينقلوا . ووزير المعارف وحده هو المسئول عن هذا الرأى وعن هذه النظرية ، وان كان وزير المعارف كغيره من الوزراء انما يعتمد في مثل هذه الاشياء على مشيريه وأعوانه الفنيين في الوزارة . فهو مسئول رسميا ولكن المسئولين حقا هم اولئك الاعوان والمشيرون فما هذا الرأى وما هذه النظرية وما هذه القواعد التي اتخذها المشرفون على التعليم فيما أحدثوا من نقل وفيما أحدثوا من تعيين؟ استطيع أن أقول ان مصلحة التعليم ومنفعة الاساتذة والتلاميذ ومنفعة مصر كلها لم تتخذ قاعدة لهذا النقل أو هذا التعيين ، بل صودرت هذه المنفعة مصادرة ظاهرة . نعم! لم تراع مصلحة التعليم ولا مصلحة المعلمين ولا المتعلمين فيما حدث من نقل وتعيين في وزارة المعارف . فلو أن هذه المصلحة روعيت مراعاة قليلة لاستدت المناصب إلى الاكفاء ، إلى القادرين على أن يملأوها ويديروها ويحسنوا فيها البلاء لخدمة العلم والتعليم . ولكنا نقرأ أسماء المعينين والمنقولين ونقرأ مناصبهم ونقارن بينهم وبين هذه المناصب فلا تجد

صلة ما ، لا نجد صلة قصيرة ولا طويلة ، لا نجد صلة ضعيفة ولا قوية ، لا نجد عمله فنيه وانما نجد شيئا واحدا هو ارادة المشرفين على الأمر في وزارة المعارف . نريد أن يشعر المنقولون والمعينون بأنا لا نتهم كفايتهم الخاصة ولا ننال منها وانما ندفع عنها ونضن بها أن تضيع فى غير ما خلقت له . فهؤلاء المنقولون والمعينون من خيرة المصريين القادرين على أن ينفعوا مصر ، ولكن فكرة شيطانية خفية وضعت كل واحد منهم في حيث لا يستطيع أن يذهب ولا أن يجئ . وسنفسر لك سر هذه الفكرة الشيطانية الخفية

وضع صاحب العزة على حافظ بك مراقبا للتعليم الأولى ، وليس لصاحب العزة على حافظ بك من التجربة فى أمر التعليم الأولى حظ قليل ولا كثير ، وانما اشتغل طول حياته العامة بأشياء اخرى غير التعليم الأولى . ووضع صاحب العزة عوض بك ابراهيم مساعداً المراقب التعليم الأولى وليس اكثر حظا من صاحبه في تجربة التعليم الأولى وممارسة الاشراف عليه . ووضع المستر روب مراقبا للتعليم الابتدائى ، ولم يشتغل المستر روب» في أمر التعليم الابتدائى بشيء منذ جاء مصر . ووضع المستر (سمسون» مراقبا للتعليم الثانوى ، ولم يشتغل المستر (سمسون» بالتعليم الثانوى منذ وفد إلى وادى النيل ، وإنما فتش على التعليم فى السودان وادار مدرسة المعلمين العليا في مصر .

ولست اشك فى أن هؤلاء الأساتذة جميعا من الكفاية بحيث يوفقون ان شاء الله إلى أن يتعلموا المهن التى كلفتهم اياها وزارة المعارف . ولكنهم سيتعلمون هذه المهن ان شاء الله بعد زمن طويل أو قصير ، بعد تجربة ، بعد تردد ، بعد اضطراب في الإدارة ينشأ عنه اضطراب فى أمر المدارس وفى أمر التعليم ، بعد أن يضيع على المدارس وعلى التعليم وعلى مصر وقت التجربة هذا الذى كان يجب ألا يضيع . وهنا اسأل نفسي : ماذا تريد وزارة المعارف حين تسند منصبا من المناصب إلى شخص من الاشخاص؟ اتريد أن ينتفع المنصب بالشخص الذى يشغله ، أم تريد أن ينتفع الشخص بالمنصب الذي يسند اليه ؟ فان كانت الأولى فمن الحق على وزارة المعارف أن تشغل المناصب بالقادرين على تدبيرها . وان كانت الثانية فهو الشر كل الشر لأنه اضاعة للوقت وعبث بالمنفعة ، فليس المطلوب من وزارة المعارف أن تعلم رجالها كيف يديرون التعليم الأولى أو التعليم الثانوى أو الابتدائي ، لان ديوانها ليس مدرسة لكبار الموظفين قبل كل شيء ، وإنما المطلوب من وزارة المعارف أن تضع في كل منصب أشد الناس قدرة على احتمال أعبائه وتدبير أموره .

وهؤلاء الناس موجودين قد عدلت عنهم وزارة المعارف لأمر نجهله أو نعلمه . ولكننا لا نذكره وليس يعنينا أن نذكره .

في وزارة المعارف رجال خبروا فى التعليم الأولى وداروه وأحسنوا البلاء في الاشراف عليه أعواما طوالا . وفى وزارة المعارف رجال خبروا التعليم الابتدائي والثانوي وأحسنوا درسهما وتجربتهما . ولكن وزارة المعارف عدلت عن هؤلاء الناس إلى غيرهم ووضعت كفايتها المختلفة فى حيث لا تنفع ولا تفيد الا بعد زمن طويل أو قصير .

لم تعمل وزارة المعارف هذا عبثا . فلكل وزارة من وزارات الحكومة المصرية سرها .. وسر وزارة المعارف واضح جلى لا يخفى على أحد ، ولكنه لا ينفع التعليم ولا يلائم المصلحة العامة . وزارة المعارف من أشد الوزارات حرصا على قاعدة المركزية وجمع السلطان في يد واحدة ، من أشد الوزارات حرصا على أن تختلف مصالحها وتتعدد وعلى أن تكون رغم هذا الاختلاف والتعدد متلائمة متحدة يشرف عليها رأس واحد وتديرها يد واحدة . فاذا وضع فى التعليم الأولى من يفهم التعليم الأولى ، وفي التعليم الابتدائي من يحسن القيام على التعليم الابتدائى ، وفى التعليم الثانوى من يتقن الاشراف على التعليم الثانوى تعرضت المركزية وسلطة الفرد للخطر الشديد . أوشك هؤلاء الاكفاء أن يستقلوا بمصالحهم استقلالا تاما أو ناقصا ، وهذا شر . فوزارة المعارف تريد المركزية ، وسبيلها إلى المركزية أن تسند كبار المناصب إلى من لا علم لهم بها . فاذا تم لهم تبوء هذه المناصب أدركتهم الحيرة فى أمورهم واضطروا في كل لحظة إلى أن يرجعوا إلى السلطة المركزية فى الدقيق والجليل من أعمالهم . واذن فيد هذه السلطة المركزية مبسوطة على اطراف الوزارة في كل فن من فنون الادارة وفى كل لون من ألوان التعليم . النظرية في نفسها معقولة منتجة ولكنها خطرة شديدة الخطر حين تتخذ أصلاً في وزارة المعارف . خطرة شديدة الخطر لأنها تقتل الكفايات العلمية ، ومصلحة مصر في تقوية هذه الكفايات لا فى قتلها . خطرة شديدة الخطر لأنها تستذل المشرفين على التعليم ، ومصلحة مصر بمصلحة التعليم في أن يكون المشرفون على التعليم أحراراً . خطرة شديدة الخطر لأنها تقيم التعليم فى مصر على سلطة الفرد ، ومصلحة مصر ولاسيما في عهد الاستقلال والدستور أن يقوم التعليم على سلطة الجماعة والديمقراطية . ثم خطرة شديدة الخطر لأنها تشعر المعلمين جميعا بأنهم خاضعون السلطان الفرد وتحكم الفرد فما أسرع ما تفسد الاخلاق وما أسرع ما تنمحى الشخصيات وما أسرع ما يصبح المعلمون أدوات مسخرة لا رؤوسا مفكرة ، وحسبك بهذه شراً على مصر وأبناء مصر ومستقبل مصر .

هذه نظرية المركزية وآثارها فى وزارة المعارف . وقد تكون هذه النظرية معقولة كما قلنا ، قابلة للبحث والمناقشة ، ولكن هناك نظرية أخرى تعمل فى وزارة المعارف واكره أن اسميها لأني أحب أن اجل وزارة العلم والتعليم عن أن تضاف اليها هذه النظرية لا اسميها اذن واترك لك فهمها وتسميتها بعد أن أظهرك على شيء قليل من آثارها فيما حدث في هذه الايام الاخيرة من نقل وتعيين .

في مصر مدارس ثانوية ، ولهذه المدارس الثانوية وكلاء مصريون قد اشتغلوا فيها فبلوها وأحسنوا ادارتها وكان من المعقول ان تسند اليهم نظارة هذه المدارس وأن يرقى نظار المدارس الابتدائية إلى وكالة المدارس الثانوية حتى إذا اشتغلوا في هذه الوكالة اعواما فجربوها وأحسنوا التصرف فيها رقوا إلى نظارة المدارس الثانوية . هذا هو المعقول الملائم للمصلحة ، لمصلحة الاساتذة والتلاميذ والنظار والوكلاء والتعليم بوجه عام ، ولكن المعقول شيء ووزارة المعارف شيء أخر . فهناك مدارس ثانوية رقى إلى نظارتها نظار مدارس ابتدائية ليس لهم فى التعليم الثانوى تجربة ولا بلاء . ويقال في هذه الترقية ما يقال ، ولكني لا أحفل بما يقال ، وانما أحفل بالنظريات الفنية نفسها وهي متشابهة في ديوان المعارف وفى مدارس المعارف ، تدور حول شيء واحد هو وضع الكفايات في حيث لا تنفع ولا تفيد إلا بعد تجربة

ودرس وزمن طويل أو قصير . ونتيجة هذا ظاهرة وهى اضطراب الأمر وفساده وتعرض التعليم فى نفسه لألوان العبث وضروب الخطر .

أفيرى وزير المعارف في هذا رشداً ؟ أفيرى وزير المعارف في هذا منفعة؟ أفلا يشعر وزير المعارف كما نشعر نحن بأنه ان تكن فى مصر وزارة من الحق عليها أن تضن بالوقت وبالقوة وان تستثمر الكفايات فى عدل وفى انصاف وأن تتخذ المنفعة الفنية وحدها قاعدة لما تحدث من نقل وتعيين ؟ نقول إذا كان هناك وزارة خليقة بهذا كله فهى وزارة المعارف التي وكل اليها تربية مصر وتكوين مستقبل مصر .

طه حسين

السياسة ، ١٧ يولية ١٩٢٣ .